جامعة محمد بوضياف – المسيلة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإسلامية

محاضرات في
مدخل إلى علم مقارنة الأديان

خاصة بالسنة أولى علوم إسلامية – جذع مشترك

إعداد: أ.د حباسي خالد

السنة الجامعية 2023/2022م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى:

علم مقارنة الأديان (مفهومه ، نشأته ، مناهجه):

يختص علم مقارنة الأديان بالوقوف على حقيقة المعتقدات الدينيّة، والتّعرّف على مدى صحتها، وما تشابه منها، ومواطن الخلاف بينها.

من حيث الأصل اللغويّ، تشير قواميس اللغة العربيّة إلى أن مادة "قَارَنَ مُقَارَنَةً وقِرانًا" تعني اقترنَ به وصَاحَبَهُ، وقَارنَ بين القوم أي سوّى بينهم، وقارن بين الزوجين قِرانًا: جمع بينهما، وقارن الشيء بالشيء: أي وازنه به، وتتضمن المعاني اللغوية لكلمة "المقارنة" هنا عدّة مفاهيم كالوصل، والجمع، والمصاحبة، والتسوية والربط، وهي مفاهيم تدل على الاقتران والمصاحبة والاشتراك. وفي اللغة الإنجليزية نجد أنّ كلمة (compare) تعني الموازنة أو الفحص من أجل التعرّف على التشابه من عدمه. وعليه يمكن تعريف المقارنة بأنها: وسيلة للفصل بين شيئين وصولاً للحكم .

وعند ظهوره في الأوساط العلميّة في الغرب، كان هذا اللفظ مرادفًا لمصطلح علم الأديان،وإلى جانب لفظ الدين المقارن، عُرِفَ هذا العلم بمسميات مختلفة مثل تاريخ الأديان، وعلم الأديان، ودراسة الأديان، وكلها مسميات تشير، بمستويات متفاوتة، إلى الجهد المعرفيّ الذي يهدف إلى دراسة الظاهرة الدينيّة بشكل مقارن.

- **علم مقارنة الأديان ونشأته في الفكر الإسلامي**

لم يظهر علم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي حقلاً علمياً مستقلا بذاته، مثل أصول الفقه أو الحديث أو التاريخ مثلا؛ فهو بطبيعته من العلوم البينية، التي تشتبك في الموضوع والقضايا مع غيرها، وإن استقل عنها في مناهج الدرس والمعالجة .

هذا العلم من الناحيّة التاريخيّة كان جزءاً من الثقافة الإسلاميّة منذ عصورها الأولى؛ إذ ظهرت في الدوائر المعرفيّة والعلوم الإسلامية –منذ بداية القرن الثالث الهجريّ– كتابات علميّة ذات طابع كلاميّ، تهدف إلى دراسة أصول الأديان وطوائفها المختلفة من حيث معرفة تواريخ نشأتها ومعرفة أفكارها العقديّة والفكريّة. ويلاحظ توظيف علماء المسلمين ألفاظًا تضمَّنت الجهد المعرفيّ المقارن للدين دون ذكر لفظ المقارنة، مثل:

* النوبختي المتوفى سنة 202 هـ ألف كتابه "الآراء والديانات"، ويعتبر الباحثون هذا الكتاب أول كتاب في علم مقارنة الأديان.

* المسعودي المتوفى سنة 346 هـ له كتاب: "المسائل والعلل في المذاهب والملل".

* أبو الريحان البيروني المتوفى سنة 425 هـ ألف كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة".

* أبو منصور البغدادي المتوفى سنة 429 هـ ألف كتابه "الملل والنحل" رد فيه على الملل والنحل مدافعًا عن الإسلام.

* ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة 456 هـ ألف كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"

* الشهرستاني المتوفى سنة 458 هـ ألف كتابه "الملل والنحل".

* أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفري المتوفى سنة 661 هـ ألف كتابه "تخجيل من حرف التوراة والإنجيل".

* أحمد بن تيمية المتوفى سنة 628 هـ ألف كتابه "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح".

بمعنى أنهم وظّفوا مفهوم علم مقارنة الأديان دون ذكر المصطلح. وهؤلاء وإن لم يذكروا لفظ المقارنة، فإنهم درسوا الأديان والمعتقدات، عبر تطبيق مناهج وصفيّة وتحليليّة نقديّة، من خلال الإشارة إلى الفروق الجوهريّة والشكليّة بين تلك الأديان وتعاليم الإسلام. وظهرت الملامح الأولى لعلم مقارنة الأديان في الفكر الإسلاميّ من الناحية التاريخيّة ضمن علم الكلام، الذي كانت وظيفته بيان المعتقدات الدينيّة والدفاع عنها. لكننا نلاحظ أن هذا العلم اكتسب استقلاليته وبدأ يأخذ مكانته العلميّة على يد العامريّ (ت:381هـ) والبيروني (ت:440هـ) وغيرهم من عمالقة تاريخ الفكر الإسلاميّ .

أما الأستاذ إيريك ج. شارب Eric J. Sharps فيرى أن شرف كتابة أول تاريخ للأديان في العالم يختص به الشهرستاني، الذي صنف أديان العالم العشرة المعروفة في العالم آنئذ، إلى حدود الصين، اعتماداً على منهج تاريخي وعلمي دقيق.

يعترف الغرب اليوم صراحة بأن الدراسة المقارنة للأديان تعدُّ واحدة من الإنجازات العظيمة للحضارة الإسلامية، أسهمت في التقدم الفكري للإنسانية كلها، وأقرت بذلك دائرة المعارف البريطانية.

لقد كان وراء نشأة هذا العلم في الفكر الإسلامي بواعث ودوافع كثيرة، تآزرت وتساندت في توجيه العلماء، وحثهم نحو وضع هذا الحقل العلمي الجديد وتنميته وتطويره موضوعاً ومنهجاً. ويجئ حديث القرآن الكريم وإشاراته المتكررة إلى الأديان والعقائد الأخرى في مقدمة هذه الدوافع. ومنها تسامح المسلمين وترحيبهم بالانفتاح والحوار والمناقشة والاحتكاك.

- **علم مقارنة الأديان ونشأته في الفكر الغربي**

إنَّ مصطلح مقارنة الأديان لم يكن حاضرًا في علوم الأوروبيين في العصور القديمة، ولم يظهر في كتابات الباحثين الأوروبيين الذين درسوا الفكر الدينيّ في العصور الوسطى، حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلاديّ؛ إذ أطلقها لأوّل مرة ماكس ميلر بقوله: لماذا نتردد عن

تطبيق منهج مقارن لدراسة الدين؟ وهذا معناه غياب رؤية علميّة ذات أسس منهجيّة لدراسة الأديان عن الأوساط العلمية والمعرفية في أوروبا.

ومن حيث التعريف العلميّ لهذا العلم في الغرب، يشير إيريك ج. شارب Eric J. Sharps في مدونته تاريخ مقارنة الأديان، إلى أن مفهومه الاصطلاحيّ لم يَحظَ بتعريف علميّ جامعٍ ومانعٍ، إلا في بداية القرن العشرين الميلاديّ، خاصّة في مدونة جوردن "مقارنة الأديان: جذورها وتطورها"، التي طبعت عام 1905م، وفيها عرَّف جوردن علمَ مقارنة الأديان، بأنه: "الدرس العلميّ الذي يقارن بين أصول المعتقدات وأشكال الطقوس والعبادات لأديان العالم، لمعرفة أوجه التشابه والتباين بينهم، وتحديد القواسم المشتركة وعلاقة بعضها ببعض، ومعرفة مواطن القوة والضّعف فيما بينهم من خلال المقابلة والموازنة، كأجناس."

وقد تعرض علم مقارنة الأديان في الغرب لمقاومة شديدة من التيار اللاهوتي المسيحي ومن بعده الماركسي يقول مؤرخ الأديان شاربي E. Sharpe "إن الانغلاق الصارم والتعصب كانا وراء الاعتقاد بأن أي دراسة للأديان الأخرى لن تقود إلا إلى تناقض حاد مع المسيحية. لكن بالرغم من هذه المقاومة، فلم يمنعا نمو علم مقارنة الأديان نمواً واسعاً، ولاسيما منذ مطلع القرن العشرين. يظهر جلياً أنّ الفكر الإسلامي هو السبّاق لهذا العلم ولكن بعد ضعف المسلمين واستسلامهم لأدبيات التخلف اتّجه الفكر الغربي نحو هذا العلم مبرزه من جديد، فأصبحت كبريات الجامعات الغربية كجامعة شيغاغو(Chicago) التي فتح فيها قسم خاص سمي(الأديان المقارنة) سنة1893 م، وجامعة مانشستر(Manchester) سنة1904م ، وجامعة السربون(Sorbonne) وبها قسم سمي: (علم الأديان).

* مناهج دراسة الأديان في الفكر الإسلامي

1. منهج التاريخ والوصف

شغل تأريخ الأديان ووصفها مساحة واسعة من فكر المسلمين، حيث أصَّل علماء الإسلام هذا المنهج، ثم طبقوه بموضوعية ونزاهة على أديان العالم المختلفة، فكان لهم سبق

كتابة تاريخ للأديان في الفكر الإنساني كله، قبل أوروبا بأكثر من عشرة قرون. مثل أبى عيسى الوراق (من مفكري القرن الثالث الهجري) الذي كتب في الوصف والتأريخ كتابه (مقالات الناس واختلافهم)، والنوبختي في كتابه (الآراء والديانات) ، وأبو المعالي العلوي في كتابه (بيان الأديان)، وكتب كثيرون كتباً بعنوان (الملل والنحل)، مثل البغدادي أبى منصور، والشهرستاني وغيرهم، وكتب بعضهم في (البرهان في معرفة الأديان).

2. منهج التحليل والمقارنة

إن علم مقارنة الأديان يقوم بالأساس على المنهج المقارن. "ولا شك أن المقارن يهدف من المقارنة معرفة أعمق بموضوع المقارنة من باب "وبضدها تتمايز الأشياء" فيركز على ما بين موضوعي المقارنة من اتفاق أو اختلاف، أو متشابهات ومغايرات.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن المقارنة عندهم لم تتخذ صورة واحدة أو شكلاً واحداً، وإنما اتسع مفهوم المقارنة لديهم وتمثل في صور متنوعة، منها على سبيل المثال: أن يدرس الباحث جانباً أو أكثر من ديانتين أو أكثر ثم يقارن بينهما، ومنها أن يتناول الدارس ديانة واحدة ويدرسها دراسة عميقة، من كل جوانبها، أو بعضها في خطوة منهجية تمهيدية لباحث آخر ويدرس ديانتين أو أكثر دراسة مقارنة. ومن صور المقارنة كذلك دراسة شخصية مؤسس الديانة، أو رسلها، مثل المقارنة بين المسيح عليه السلام، وشخص بوذا أو كرشنا، ومنها دراسة الأسفار التي يقدسها أصحاب الديانات، وعلماء الأديان الغربيون.

وعلى العموم ، طريقة المقارنة تهتم بدراسة مختلف أنواع الظواهر الدينية على الخصوص بتعيين وتحليل العوامل التي تؤدي إلى التشابه والفروق في الأنواع المعينة.

3. المنهج التحليلي النقدي

يركز على ما بين موضوعي المقارنة من اتفاق أو اختلاف، أو متشابهات ومغايرات، بدون أن يتجاوزها. وهذا في الواقع ما يسعى إليه الفكر الغربي الحديث في مجال مقارنة

الأديان، وهو أمر لا بأس عليه إطلاقا. ... لكن المشكلة عندما يلح هذا الفكر الغربي على وجوب تجنب الوصول إلى نتيجة من مثل تفضيل دين على آخر كنتيجة من نتائج المقارنة ويصر عليه ، فالمقارن بين دينين إما أن يقصد مجرد التعرف أو يتجاوزه إلى اختيار الأقوم والأرشد أو يزداد إيمانا بدينه وما إلى ذلك من الأهداف. فالفكر الغربي اختار الأول، والفكر الإسلامي قرر الثاني. وهو في موقفه هذا ينسجم مع فكرة " الدعوة " ، ويتفق مع طبيعة المسئولية التي أنيطت بالإنسان المسلم .

وعند التفضيل فلا بد أن يبين المقارن سبب التفضيل ، الأمر الذي يؤدي به إلى الاستعانة بالمنهج النقدي لبيان المآخذ التي يراها في الديانة الأخرى التي يقارنها بالإسلام.

درس المسلمون الأديان، أو جوانب منها، دراسة نقدية في كثير من أعمالهم العلمية التي حللوا فيها جانباً معيناً أو جوانب في ديانة أخرى، تحليلاً نقدياً، ومن ذلك: دراسة ابن حزم الأندلسي لنص العهدين القديم والجديد، ودراسة أبي حامد الغزالي، وكذلك تحليل المسلمين النقدي لدعوى التثليث، والصلب، والقيامة، والخطيئة، والكفارة، في المسيحية، والتناسخ في أديان الهند، والنسخ في اليهودية، ولجوانب مهمة في الزرادشتية والمانوية إلخ.

4. منهج الحوار والرد والمجادلة

عرف الفكر الإسلامي شكل المناظرات الحية، التي كانت تتم في مجالس عامة، أو خاصة بين علماء مسلمين وغير مسلمين، من أصحاب الملل المختلفة، تطبيقا لقول الحق تبارك وتعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل: الآية 125).

وهناك، كذلك، المناظرات المدونة في رسائل أو في كتب؛ منها رسالة راهب كلونى Cluny في جنوب فرنسا إلى أمير سرقسطة في الأندلس، وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها.

وهناك، كذلك، الدراسات الجدلية المتعلقة بالرد على قضية، أو مسألة بعينها، أو أكثر مثل كتاب أبى عيس الوراق (الرد على فرق النصارى الثلاث)، ورسائل الجاحظ (المختار في الرد على النصارى).

وبناءً على هذه الأطر المنهجيّة والمعرفيّة، عُرِّفَ علم دراسة الأديان في الفكر الإسلاميّ الحديث، بأنه: "علم يبحث في الملل من حيث منشأها وتطورها وانتشارها، وأتباعها، وفي العقائد والأصول التي تتركز عليها الملل المختلفة، وفي أوجه الاختلاف والاتفاق فيما بينهما، مع المقارنة والمناقشة والرد.".

وهنا لم يعد مفهوم هذا العلم مقصوراً على عمليتي "الوصف والتّحليل"، كما هو الحال في تعريف علماء الغرب له، بل تضمّن عناصر إضافيّة مثل "المناقشة والردّ"، وهي عناصر ذات طابع معياريّ يتجاوز بها هذا العلم من كونه أداة وصف وتحليل، إلى أداة تصويب وتمحيص. وعليه فإن علم مقارنة الأديان، في هذا المفهوم هو فن علميّ: "يقارن بين الأديان لاستخلاص أوجه الشبه والاختلاف بينهم، ومعرفة الصحيح منها والفاسد؛ إظهارًا للحقيقة [الدين] بأدلة يقينية،" من حيث معرفة تواريخ نشأتها وتكوينها، ومن حيث تحليل مكونتها الفكريّة والعقديّة، وتأثيرها الاجتماعيّ، ومواطن انتشارها وأتباعها.